The Influences of Ottomans on the Shami and Egyptian Roads of Hajj "A comparative Study"

Mohammad Ali Al-Ahmad
Assist. Prof. Karabuk University Theology Faculty, Islamic History, Turkey
Arrival date: 01-03-2019 Acceptance date: 28-03-2019

Abstract

This research discusses the Ottoman political and religious influences on Shami and Egyptian Hajj travel, which is known as the "Egyptian and Shami Convoy", and identifies the differences between these two convoys by investigating this event and its methods. The study also sheds light on the customs and norms of the ceremony regarding the farewell and reception of pilgrims characterizing various areas and districts within Egypt and sham, In addition to the dangers of the pilgrimage route from its beginnings until return. The study address the utmost importance shown by the Ottoman Empire towards the pilgrimage from the political and religious aspects and the positive effects that these ceremonies have on the relationship between the Ottomans and their subjects in those countries, which was at that time limited to four paths, thus this research is limited to the Shami and Egyptian convoys and the research findings and conclusions exist.

Keywords: the ottoman empire, the caliphs, the mamluk state, the caliphate, the shami convoy, the egyptian convoy, the pilgrimage roads, the sorr, the sultan's sorrah, aljardah, the hajj convoys, hajj parade ceremony, sanjak.

التأثيرات العثمانية على طَرِيقَيْ الحَجِّ الشَّامِيِّ والمصريِّ " دراسة مُقَارَنَة "

د . "محمد علي" الأحمد
أستاذ التاريخ الإسلامي والعثماني
أستاذ مساعد – جامعة كرابوك – تركيا

الملخص

يناقش هذا البحث التاثيرات العثمانية السياسية والدينية على طريق الحَجِّ الشامي والمصري، وهو ما يُعْرَف بـ " المِحْمَل المصري والشَّامي"، ويسعى للتعرف على الفروقات بين هذين المحملين من خلال تحليل الوقائع لهذا الحدث إضافة لمناقشة الأساليب، والوسائل التي تستعمل في طريق سير المحملين الشامي والمصري، كما يسلط الضوء على الأعراف والعادات التي تميز بها البلدان عند القيام بمراسم الوداع والاستقبال للحجاج في رحلتهم المباركة للديار الحجازية، والآثار الإيجابية التي تتركها تلك المراسم على العلاقة بين العثمانيين ورعاياهم في تلك البلدان، كما يتعرف على المخاطر التي تكتنف طريق الحج من مبتداه وحتى منتهاه في الذهاب والعودة، ثم يتطرق للأهمية القصوى التي تبديها الدولة العثمانية، والأبعاد التي تتوخاها من خلال هذا الاهتمام الكبير بمحمل الحج من الجوانب السياسية والدينية، والقادم من مسالك متعددة من البلدان الإسلامية إلى الديار المقدسة في مكة والمدينة، والتي حُصِرَت آنذاك بأربعة طرق أو محامل، لكن ما يَعْني هذا البحث هذا هو المحمل الشامي والمصري، إضافة إلى عرض لأهم النتائج والخلاصات التي توصل إليها الباحث من خلال معالجة هذا الموضوع.

الكلمات المفتاحية: الدولة العثمانية، الخُلفاءُ، الدولة المملوكية، الخِلافَةُ، المحْمَل الشَّاميُّ، المحْمَل المصْرِيُّ، طُرُقُ الحَجِّ، الصَّر، الصُّرَّةُ السُلطانية، الجَرْدَةُ، قوافل الحَجِّ، مَرَاسِمُ مواكب الحَجِّ ، السَّنْجَقْ (الصنجق).

تم تقسيم هذا البحث إلى مقدمة، و مباحث عدّة وخاتمة، جاءت على الشكل الآتي :

مقدمة

الحَجُّ أحد أركان الإسلام الخمسة، وهو في اللغة: القصد إلى مُعَظَّمْ، والحَجُّ عبادة معروفة عبر التاريخ الإنساني منذ إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حين أمره الله تعالى بعمارة البيت الحرام (الكعبة) بقوله تعالى : " إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ... ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ... " سورة آل عمران، الآيات (95 – 97)، وكانت العرب تحج إلى الكعبة قبل الإسلام، ولكن على الطريقة الجاهلية التي تشوبها الكثير من مظاهر الشرك بالله، وحين جاء الإسلام، نَظَّم أمور الحج وفق منهج الله القائم على توحيد الألوهية والربوبية لله، وتنقية الحج من كل شوائب الجاهلية والشرك والعبودية لغير الله وأصبح للحج موكب سنوي وأمير يشرف على موكبه ويترأس هذا الموكب، وكان الخليفة الراشدي الأول أبو بكر الصديق أول أمير للحج بعد انتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، ثم توالى الخلفاء في ترأس موكب الحج، وصار هذا الموكب تقليداً إسلامياً سنوياً عبر امتداد التاريخ الإسلامي، منذ عهد الخليفة أبي بكر الصديق وحتى نهاية التاريخ العثماني مطلع القرن العشرين الميلادي / الثالث عشر الهجري، أما طرق الحج فقد تعددت بعد العهد الراشدي، نظراً لتوسع البلاد الإسلامية من ناحية، ولتعدد الأقوام والجهات التي يَفِدُ منها الحجاج إلى الكعبة المشرفة لأداء فريضة الحج من ناحيةٍ ثانيةٍ، وفي العهود الإسلامية المتتالية أطلق على موكب الحج اسم : مَحْمَل الحج، لأنه تُحَمَّل فيه كسوة الكعبة، وتحمل مع المحْمَلِ الهدايا والمساعدات المقدمة إلى المجاورين للكعبة، على ظهور الجمال والدواب، في موكب مَهيب، يرعاه ويشرف عليه ويترأسه خليفة المسلمين، أو من يُنيبُهُ عنه، كالوالي مثلاً، فاالوالي الذي ينطلق من بلدِهِ موكبُ الحجّ، يكون هو ممثل الخليفة في ترأس مَحْمَل الحَجّ ورعايته .

المَبْحَثُ الأوَّل: الدولة العثمانية ومَحْمَلُ الحَجّ :

عرفت الدولة العثمانية أنها دولة مسلمة، على مذهب أهل السنة والجماعة، وعُرف عنها حرصها الشديد على إقامة الشعائر الإسلامية، وتعظيم العلماء وأهل الدين والاهتمام الكبير بخدمة الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، لا سيما بعد فتح العثمانيين للبلاد العربية في الشام ومصر ثم الحجاز وسائر الأقطار العربية، وعندما فتح السلطان سليم الأول مصر عام 923 هـ / 1517 م ، خطب له على المنابر بأنه "خادم الحرمين الشريفين" وقد حرص منذ بداية دخوله إلى البلاد العربية، على تأكيد إهتمامه بشؤون الحرمين في مكة والمدينة، وتتابعت عناية السلاطين العثمانيين البالغة والعظيمة بشؤون الحرمين، وحرصوا أمام عامة المسلمين في عموم الأقطار الإسلامية على إبراز عنايتهم بأمور الحج وتمثيلهم للعالم الإسلامي في حماية المقدسات الإسلامية في مكة والمدينة، لأجل هذا تركز هذه الورقة البحثية على المقارنة بين طريقي الحج أو محملي الحج الشامي والمصري، لإظهار وبيان الفروق بينهما، ولبيان التأثيرات العثمانية على كل منهما، ومعرفة انعكاسات تلك التأثيرات على الحجاج، وأيضاً انعكاساتها على العلاقة بين الدولة العثمانية وبين المسلمين في كل من أفريقيا وآسيا وبلدان العالم الأخرى، نظراً لحرص هذه الدولة على إنجاح مواسم الحج، فإنها كانت تحرص على تقديم الخدمات لحجاج بيت الله الحرام، وتتطلع من خلال ذلك إلى كسب ولاء ملايين المسلمين، وكسب قلوبهم وتأييدهم لخليفة المسلمين، وقد سعى السلطان سليم الأول حين فتح مصر إلى نيل هذا التأييد، عندما اتخذ

لنفسه هذا اللقب، كأول خليفة عثماني يستمد شرعيته في حكم بلاد الشام ومصر والحجاز من لقب الخلافة [1] .

أولاً : مَحْمَلُ الحَجِّ :

عندما يسمى طريق الحج باسم المحمل، فإنه يسمى بذلك لأن قافلة الحج المتجهة إلى بيت الله الحرام " الكعبة " إنما تسمى باسم الجمل الذي يتقدم القافلة كلها، سواء كانت قادمة من الشام أو من مصر، أو من العراق، أو من اليمن، ولهذا فإنه يَحْسُن ابتداءً تعريف المِحْمَل، ومن ثم التعريف بمحمل الحج الشامي ثم المصري، باعتبارهما مناط الدراسة في هذه المشاركة العلمية المقدمة لمؤتمر طرق الحج .

1 – تعريف المحمل :

المحمل هو هيكل مغطىً بقماش مخملي أخضر كتب عليه بالقصب آيات من القرآن الكريم، يحمله جمل مزين بأقمشة مزركشة، وجلودٍ جميلة، يرافق أمير الحج من مركز المحمل، سواء كان المحمل الشامي أو المصري أو غيرهما، إلى الأماكن المقدسة في الحجاز، وهو يحمل شعاراً وبيرقاً للسلطان العثماني، ورمزاً لسيادته على الحرمين الشريفين[2] . إذاً المحمل : هو الموكب الذي يحمل كسوة الكعبة، والمحمل المصري هو الموكب الذي يخرج من القاهرة، حاملاً كسوة الكعبة إلى مكة المكرمة، وكان أول خروج للمحمل المصري قبل العهد العثماني في عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس[3] . ويمكن أن يكون المحمل قريب الشبه بالهودج الذي كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام، وهو عبارة عن هيكل صغير مربع الشكل على شكل غرفة صغيرة يوضع على ظهر الجمل ويجلل بالأغطية التي تحجب الشمس عن الشخص الذي يجلس فيه على ظهر الجمل .وكانت العرب تصنع الهودج لحمل النساء على الجمال، وقد مر الهودج بشكله ووظيفته بمراحل تطور مختلفة، حتى وصل إلى الحالة التي استقر عليها في العهد المملوكي وما بعده[4] .

2 – الاحتفال بخروج المَحْمَل والسَّنْجَقِ وتوديعهما:

ويصاحب المحمل المنطلق من مصر أو من الشام باتجاه الحجاز إلى مكة المكرمة، يصاحبه السَّنْجَقْ، وهو علم النبي صلى الله عليه وسلم، ويُحمل على جمل آخر غير الجمل الذي يحمل المحمل، ويوقود هذا الجمل موظف خاص يلبس لباساً مزركشاً، وكان المسلمون يسيرون مع هذين الجملين وهم في مهابة وإجلال للموكب تبركاً بهما، ويسير الجمل الذي يحمل السنجق أو علم النبي صلى الله عليه وسلم، خلف جمل المحمل، ويرفع شخص العلم أو السنجق فوق الجمل الذي يرافق جمل المحمل، ويسير به مرفوعاً للأعلى أمام قافلة الحجاج، ويخرج موكبهما من مركز المحمل باتجاه مكة المكرمة، وفي المحمل الشامي، يخرج المحمل من دمشق

---

1 ابن إياس، محمد بن أحمد (ت 930 هـ / 1524 م) بدائع الزهور في وقائع الدهور، (5 ج)، تحقيق: محمد مصطفى، د.ن، القاهرة، 1967 م، جـ 5، ص 125 .

2 ابن كنان الصالحي، محمد بن عيسى (ت 1153 هـ / 1740 م)، المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، تحقيق: حكمت سليمان، جامعة دمشق 1982 م، ص 416 .

حَمَارْنَة، نضال، محمل الحج الشامي، صحيفة الرأي الأردنية، ع (15696) الأربعاء 18 ذو الحجة 1434 هـ / 23 – 10 – 2013 م .

3 السيوطي، عبد الرحمن بن محمد، (ت 911 هـ / 1505 م)، سحن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، المطبعة الشرقية، 1910 م، جـ 2، ص 74 .

4 العنقاوي، عبد الله، المحمل نشاته وآراء المؤرخين فيه، مجلة كلية الآداب، القاهرة، (مج 2)، سنة (2)، 1391 – 1392 هـ / 1971 – 1972 م، ص 323 – 338.

درادكة، صالح موسى، طريق الحج الشامي في العصور الإسلامية، نشر: مؤسسة آل البيت، ط 2، عَمّان، الأردن، 2007 م، ص 79، 389 .

عاصمة بلاد الشام ومركز المحمل الشامي ونقطة انطلاقه، باتجاه مكة المكرمة عاصمة الحجاز[1] .

– أما طريقة الاحتفال بخروج المحمل والسنجق أو " العلم " من مركز المحمل الشامي دمشق، فكانت تتم بوضع المحمل على جمل مخصص له، ويرفع السنجق على سارية خاصة، ويكونان مزينان بالزينة المصنوعة من خيوط الذهب الخالص، ويسير خلفهما موكب من مجموعة من الجنود حاملين الأعلام ومعهم احتفالية كبيرة من أبناء المدينة يودعون الموكب من الزعماء والعساكر والأعيان وأكابر الدولة وقاضي المحمل ويتقدم الموكب ويترأسه أمير الحج ويسير معهم كافة الحجاج عامَّة الحجِّ الشَّريف، أجواقاً أجواقاً ومعهم المِدّرسون، وعلى أطراف المدينة يُوَدَّعُ الموكب مع إطلاق المدفعية نيرانها ابتهاجاً بخروج الموكب ويردد المنشدون والمؤذنون الأناشيد الوَدَاعَية والأدعية الإسلامية، وتمتلىء الشوارع التي يخرج منها الموكب بالناس المبتهجين المودعين للموكب[2] .

المَبْحَثُ الثاني : طُرُقُ قوافل الحجِّ في العهد العثماني :

اعتبر الخلفاء العثمانيون رعاية قوافل الحج والعناية بطرق قوافله من أهم وأعظم واجباتهم، لأنهم يرون في ذلك تطبيقاً لفرائض الإسلام والتزاماً بها وتحقيقاً لها، على أن الحج من فرائض الإسلام وأحد أركانه الخمس، ولأجل ذلك أشرف الخلفاء العثمانيون بأنفسهم على تسيير قوافل الحج، وتابعوا عملياً آليات عمل تلك القوافل، كي يضمنوا أمن طرق الحج وسلامة الحجيج وراحتهم وتلبية كافة احتياجاتهم من مركز انطلاقهم في عاصمة الولاية التي تنطلق فيها قافلة الحج، وحتى نهاية طريقها عند الكعبة المشرفة في مكة المكرمة، وفي الفترة التي سبقت الدولة العثمانية، كان موكب الحج ينطلق من عاصمة الخلافة إلى الديار المقدسة، ففي العهد الأموي داوم الخلفاء الأمويون على تسيير هذه القوافل من عاصمة الخلافة دمشق إلى مكة والمدينة منذ سنة 41 هـ / 661[3] م، وحتى انتهاء دولة الأمويين، وابتداء خلافة العباسيين سنة 132 هـ / 749 م، وبانتهاء الخلافة العباسية عام 656 هـ / 1258 م، انتهى خروج الموكب الذي يحمل الكسوة وما يرافقها من منح مالية وهدايا، من بغداد عاصمة الخلافة العباسية، ليتولى هذا الأمر سلاطين المماليك، ويُخرِجوا موكب الحَجِّ حاملاً كسوة الكعبة وكل الهدايا المرافقة لها، من عاصمتهم القاهرة، إلى الكعبة المشَرَّفَة، والذي عرف باسم المحمل المصري، وكان أول خروج له أيام السلطان الظاهر بيبرس عام 675 هـ / 1276 م[4] ، واستمر خروج المحمل المصري من مصر في عهد المماليك إلى حين سقوط دولتهم على يد الخليفة العثماني سليم الأول عام 923 هـ / 1517 م حين فتح مصر بعد فتحه للشام في العام الذي سبقه 922 هـ / 1516 م، وقد توقف موكب الحج من الشام ومصر في السنة التي افتتح السلطان سليم الأول الشام ومصر، ثم استُؤْنِفَ بعد ذلك، واستمر انطلاق هاتين القافلتين من الشام ومصر إلى حين استحداث قافلة الحج اليمني عام 963 هـ / 1556 م، فصار المحمل اليمني ثالث طرق الحج، واستمر كذلك إلى حين إلغاء قافلة الحج اليمنية، بسبب تولى الزيديين السلطة في اليمن عام 1635 م / 1045 هـ، وخروجهم عن السيادة العثمانية[5] . وبعد خلافة السلطان سليم الأول في

1 ابن كنان، المواكب الإسلامية، ص 417 .

2 ابن كنان، المرجع السابق، ص 416 .

3 درادكة، صالح موسى، طريق الحج الشامي في العصور الإسلامية، نشر: مؤسسة آل البيت، ط 2، عَمّان، الأردن، 2007 م، ص 73 .

4 فهد، بدري محمد، تاريخ أمراء الحج، مجلة المورد، عدد خاص بمناسبة حلول القرن الخامس عشر الهجري، مج 9، ع 4، شتاء سنة 1980 م، ص 202 .

5 رافق، عبد الكريم، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، نشر جامعة دمشق، دمشق، 1985 م، ص 193 .

مراحل لاحقة من العهد العثماني، أضيف مَحْمَلٌ رابعٌ للحج هو طريق الحج أو قافلة الحج العراقية، التي أخذت تنطلق من بغداد، وهذه المِحَمِلُ كلها تنطلق من عواصم بلدانها، أو لنقل من الحواضر الرئيسة لهذه البلاد، وهي تابعة في ذلك الحين بشكل رسمي للسيادة العثمانية، وهذه العواصم هي القاهرة ودمشق وصنعاء وبغداد، وكلها تنطلق في مواعيد محددة ووفق نظام رتيب ودقيق، ويصاحبها قوة عسكرية يقودها أحد كبار العسكريين، ويسمى (سردار الحج)، كما يقود قافلة الحج شخصية كبيرة منتدبة من الخليفة العثماني وممثلة له وتنوب عنه تسمى(أمير الحج) وغالباً ما يكون الوالي، وترتيب هذه القوافل وطرق سيرها من بدايتها وحتى منتهاها يكون على الشكل الآتي :

– قافلة الحج الشامي: وتضم حجاج بلاد الشام والجزيرة العربية وأذربيجان والقوقاز والقِرْم والأناضول والبلقان، علاوة على حجاج عاصمة الخلافة العثمانية استانبول، وهذه القافلة تمثل محمل الحج أو طريق الحج الآسيوي ، في مقابل محمل الحج أو طريق الحج المصري، أو الأفريقي .

– قافلة الحجّ المصريّ أو الإفريقيّ

– قافلة الحج العراقي : وتضم حجاج العراق وبلاد فارس .

– قافلة الحج اليمني : وتضم الحجاج القادمين من اليمن والهند وأندونسيا وغيرها من تلك الجهات[1] .

أولاً : طريقُ قافلةِ الحَجّ أو المَحْمَل المِصْري :

كان أول طريق بري تشكله قافلة الحج المصري في عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس سنة 677 هـ / 1268 م، وقد سلكت قافلة الحج المصري في هذا العهد الطريق الآتي، مروراً بمراحله ومنازله وهي : البركة، واسمها سابقاً جب عميرة، ثم : السويس، بئر معبوق، بئر نخل، عقبة (أيلة)، مغاير شعيب، عيون القصب، كفانة وادي سلمى، الوجه، أكرا، الحوراء، المنيرة، ينبع النخيل، الدهناء، ثم بدر، ويكمل الركب أو المحمل مسيره مع طريق بدر حتى مكة المكرمة[2] .

وبمقارنة هذا الطريق في العهد المملوكي مع وضعه ومسيره في الفترة اللاحقة في العهد العثماني يلاحظ أن أسماء بعض المنازل قد تغيرت في العهد العثماني عما كانت عليه في العهد المملوكي فطريق القافلة في العهد المملوكي يبدأ من القاهرة حتى قوص، في طريق نهرية، ثم عبر صحراء عيذاب – ميناء عيذاب على البحر الأحمر، حيث تبحر عيذاب على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر إلى الشاطئ الشرقي عند حَدَّة في المملكة العربية السعودية، وهي رحلة صعبة يديرها أهل عيذاب بواسطة مراكب واهية متهالكة كما يصفها ابن جبير[3] وتستغرق الرحلة من القاهرة حتى مكة مدة خمسة وأربعين يوماً[4] .

أما في العهد العثماني فطريق المحمل المصري يمر بالمناطق الآتية : النقب، الوجه، عيون القصب، مغاير شعيب، ظهر الحمار، العقبة، وادي نخل، وادي التيه الذي يجاور العقبة، عجرود، البويب، ويكون تجمع الحجاج في هذا المنزل، ثم إلى شاطئ (نيل البركة) ومنه التوجه إلى القاهرة، ويستغرق هذا الطريق من مبتداه حتى منتهاه، من القاهرة حتى مكة، حوالي الشهر، ويقطع فيه الحجاج مسافة تقدر بحوالي ألف وخمسمائة كم[5] .

---

1 رافق، عبد الكريم، المرجع السابق، ص 193 .

2 العبدري، الرحلة المغربية، ص 157 .

3 ابن جبير، محمد بن جبير الكناني (ت 1219 هـ / 1804 م) رحلة ابن جبير المسماة : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، دار التراث، بيروت، 1968 م ، ص 47 .

4 ابن جبير، المصدر نفسه، ص 47 .

5 كبريت، محمد عبد الله الحسيني الموسوري (ت 1070 هـ / 1659 م) الرحلة (رحلة الشتاء والصيف)، تحقيق : محمد سعيد الطنطاوي، المكتب الإسلامي، ط 2، بيروت، 1965 م، ص 10 .

ثانياً : قافلة الحَجّ أو المَحْمَل الشَّامي :

يعد طريق الحج الشامي من أقدم الطرق منذ فترة ما قبل الإسلام، فقد كان طريقاً تجارياً عالمياً خلال العصور الكلاسيكية (الإغريقية)[1] وكان يزدهر إذا حدثت الحروب والاضطرابات في بلاد ما بين النهرين، وأيضاً عندما تكون الملاحة صعبة في البحر الأحمر[2] ، وفي العهود الإسلامية المتعاقبة وابتداءً من العهد الأموي كانت دمشق عاصمة الخلافة الإسلامية آنذاك، هي المنطلق للمحمل الشامي نحو الأرض المقدسة في الحجاز ولَمّا كان المحمل يتقدم ركب الحج، فقد بالغ المسلمون منذ هذه الفترة في تزيين الجَمَل الذي يحمله، ويحملون عليه نسخة أو نسخاً من القرآن الكريم[3] ، إضافةً إلى حمله الهدايا لأمراء مكة، وقد صار المِحْمل رمزاً للقافلة وشعاراً لها[4] .

ثالثاً : قيادة القافلة وطريق سيرها :

تتكون قافلة الحج الشامي في العهد العثماني من قوافل الحجاج التي تفد إلى دمشق مركز تجمع القافلة، من العديد من البلدان، ومن أبرزها وأكثرها عدداً قافلة الحج الرومي، (القافلة العثمانية) وإضافة للحجاج الروم والأتراك، فإن أقواماً آخرين ينضمون إلى حجاج هذه القافلة، كالحجاج الفرس والهنود والأفغان والمغاربة والسمرقنديين والبخاريين والروس والقفقاسيين، وفي هذه الأجواء الاحتفالية الممتعة يلتقي هؤلاء الحجاج من كافة الأقطار الآسيوية في المشرق الإسلامي، ويتزاحمون على أبواب دمشق ثم يدخلونها ويتغلغلون في أسواقها، ويحدث جبر خاطر لعموم الأهالي في دمشق بسبب البيع والشراء فيها[5] ، ولما كان موكب قافلة الحج من حيث التجمع في مركز القافلة، ومن حيث مسيرها نحو مكة والمدينة، مظهراً إسلامياً متميزاً، فقد حرصت الدولة العثمانية على إيلائه كل الاهتمام والعناية، ومن سمات هذا الاهتمام أنها خصّت ولاية دمشق بولاة من خيرة الولاة الأكفاء ومن أكثرهم حزماً واستقامة[6] ، باعتبارهم المسؤولين عن قافلة الحج وسلامتها، وفي المقابل تحتفي دمشق على المستويين الرسمي والشعبي بقافلة الحج، من ناحية الإعداد والتجهيز لها وتوديعها وإمدادها بما تحتاجه أثناء الذهاب والعودة[7] ، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن موكب الحج أو المحمل الشامي وقافلته المتجهة إلى الحجاز، والتي تنطلق من دمشق وتضم قوافل كل المناطق الآسيوية المنضوية تحت لواء الدولة العثمانية، لم تخرج إلى الحجاز في السنتين اللتين أعقبتا الفتح العثماني لبلاد الشام عام 922 هـ/1516م بسبب التبدل في السلطة الحاكمة، وزوال سلطة المماليك عن بلاد الشام، وتولي العثمانيين إدارتها،

بني يونس، مأمون أصلان، قافلة الحاج الشامي في شرق الأردن في العهد العثماني (1516 – 1918م)، دار الكندي، ط 1، عَمَّان، 2000 م، ص 28 – 37 .

الرشيدي، أحمد، حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج، تحقيق علي عبد اللطيف أحمد، نشر : مكتبة الخانجي، مصر، 1980 م، ص 36 – 46 .

1 درادكة، الحج الشامي في العصور الإسلامية، ص 74 .

2 A.D. Peterson. Early Ottoman Forts on Hajj Road in Jordan. Thesis Pembroke College Oxford. Trinity Term 8986. P.6

3 كبريت، رحلة الشتاء والصيف، ص 320 .

رفعت، إبراهيم، مرآة الحرمين، أو : الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، (2 ج)، دار الكتب المصرية، ط 1، 1925 م، جـ 2، ص 304 – 305 .

4 درادكة، الحج الشامي في العصور الإسلامية، ص 79 .

5 البديري، أحمد البديري الحلاق، حوادث دمشق اليومية 1154 – 1175 هـ / 1741 – 1762 م، تحقيق: أحمد عزت عبد الكريم، نشر : الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، د.ت، ص 47 .

6 رافق، عبد الكريم، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، ص 193 .

7 نعيسة، يوسف جميل، مجتمع مدينة دمشق، 1186 – 1256 هـ / 1772 – 1840 م، (2 ج)، دار طلاس، ط 1، دمشق، 1986 م، جـ 2، ص 670 .

كرد علي، محمد، خطط الشام (6 ج) مكتبة النوري، ط 3، دمشق، 1983 م، جـ 5، ص 168 – 170 .

الأمر الذي أحدث اضطراباً في الأرياف وتمرد القبائل البدوية، وبعد استتباب الأمن من جديد في المناطق الشامية، استُبْعِدَ الولاة المماليك نهائياً عن ولاية الحج، وتم تعيين أحد الأمراء المحليين من حكام السناجق التي تتبع ولاية الشام، أميراً على الحج[1] ، وكان غالباً ما يكون والي دمشق هو أمير الحج[2] .

رابعاً : عدد حُجَّاج قافلةِ الحَجِّ الشاميّ :

كان متوسط عدد حجاج قافلة الحج الشامي بحدود خمسة وعشرين ألف حاج، (25,000)، وكان يرتفع أحياناً إلى أربعين ألف (40,000) أو أكثر، خاصة في مواسم الحج التي عقبت كارثة ما أو حرباً، فيقتضي ذلك التوجه إلى الحج لشكر الله على انتهاء الكارثة أو الحرب[3] .

وبالنظر إلى عدد حجاج محمل الحج المصري في العهد العثماني، في محاولة للمقارنة بينهم وبين حجاج المحمل الشامي، فإن المصادر لا تسعفنا بأية أرقام أو معلومات دقيقة، لكن يبدو أن الأعداد تزيد وتنقص من فترة لأخرى، تبعاً لحالة الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي، وخاصة الحالة الأمنية على طريق الحج، إذ يزداد عدد الحجاج بتوفر الأمن واستقراره، ويتناقص عند حدوث الكوارث والأزمات الاقتصادية، وعند الخوف من اعتداءات البدو والأعراب عليهم، وتشير المصادر أن قافلة الحج المصري تطورت وازداد عدد الحجاج فيها في نهاية العهد المملوكي قبيل بدء العهد العثماني، إلى ما يزيد على مائتي ألف حاج في الركب المصري وحده[4] ، وتُزَوَّدُ قوافل الحجيج بكل احتياجاتها المعيشية فضلاً عن توفير أرباب الحرف والصنائع التي يحتاجها الحجاج في الحِلّ والترحال، علاوةً على تسيير مجموعة من الأطباء والمجَبِّرِين والأدلاء والمؤذنين والأئمة ومغسلي الموتى وغيرهم، وكان حجاج الشام يلتقون معهم على طريق أيلة (العقبة) للاستفادة من خدمات موكب الحج المصري، الذي يبدو أنه كان متقدماً في خدماته على الركب الشامي[5] .

المبحث الثالث : الاستعدادات لخروج قافلة الحج الشامي :

أولاً : تنظيم القافلة :

– يقام احتفال مهيب لخروج قافلة الحج الشامي، وتُعَدُّ مراسم هذا الاحتفال من أطول المراسم الدينية والمدنية وأكثرها ابتهاجاً وفخامة ، وذلك لما نالته هذه القافلة من اهتمام من مؤسسة الخلافة العثمانية ومن ولاتها، لتوجههم بأن ذلك يرسخ احترامها وتعظيمها في نفوس الناس[6] ، وتشمل مراسمها المواكب الآتية :

1 – موكب الزيت والشموع : يقام في السابع عشر من شوال من كل عام، ويؤتى بالزيت على جِمالٍ مزينة ويوضع الزيت إلى جانب أدوات الحج الأخرى، إضافة للشموع بمقاييسها المختلفة، وهذا الموكب يسبق القافلة والمحمل في الإعداد والتجهيز في دمشق[7] .

2– موكب المحمل والسنجق (الصنجق) .

3– موكب قافلة الحج: ويكون خروجها بين 15 – 17 شوال من كل عام[8]

---

1 رافق، عبد الكريم، قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني، مجلة دراسات تاريخية (فصلية تعنى بالدراسات التاريخية، تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب)كلية الآداب / جامعة دمشق، ع 6، ذو الحجة 1401 هـ / تشرين أول 1981 م، ص 7 .

2 رافق، المرجع السابق، ص 9 .

3 البديري، حوادث دمشق اليومية، ص 47، بني يونس، قافلة الحج الشامي في شرق الأردن في العهد العثماني، ص 43 .

4 العبدري، الرحلة المغربية، ص 156 .

5 التهامي، محمد محمد، الإصلاحات المملوكية في الأرض الحجازية، مجلة الدارة، سنة 1985 م، عدد حزيران 6/11/ ص 81، 86 – 94 .

6 المرادي، محمد خليل بن علي (ت 1206 هـ / 1791 م) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (4 مج) مكتبة المثنى، بغداد، 1883 م، جـ 2، ص 161 .

7 نعيسة، مجتمع مدينة دمشق، جـ 2، ص 667 .

8 نعيسة، مجتمع مدينة دمشق، جـ 2، ص 669 .

ثانياً : قافلة الجَّرْدَةِ :

ارتبط تجهيز قافلة الحج وخروجها من دمشق إلى الحجاز بإعداد قافلة أخرى تجهزها الدولة العثمانية احتياطاً، وذلك للتخفيف عن الحجاج في رحلة عودتهم من الحجاز، وتجنباً لطارئ قد يصيبهم أو يطرأ عليهم أثناء رجوعهم من جوع أو نقص في المؤن والمياه والخدمات الأخرى، ويتم تحضير هذه القافلة أثناء استعداد الحجاج للسفر إلى الحجاز، إذ تختار السلطات العثمانية أحد الولاة في ولاياتها في بلاد الشام كوالي حلب أو طرابلس أو صيدا أو حاكم غزة، إن كانت عودة الحجاج عن طريق غزة، إن كان في الطريق السلطاني أية مخاطر قد تتهدد الحجاج، ففي حال عودة الحجاج عن طريق غزة، يكون أهل غزة قد هيأوا جردة (قافلة عودة) محملة بالمؤن يخرج بها حاكم غزة لملاقاة الحجاج في معان، ويعمل الوالي في هذه الحالة – ويلقب هنا بـ سردار الجردة – على إعداد هذه القافلة، ويذكر أن سردار الجردة كان يتم اختياره في القرن التاسع عشر بمشاورة والي الحج، ويطلق عليه لقب " جردي باشا " وقد انتخب والي طرابلس لأكثر من مرة كباشا للجردة[1] أما المؤن التي تحملها قافلة الجردة فتشمل الزيت والأرز والشعير وعليق الدواب والحِبال والملابس، وتعد هذه الموارد كلها لإسعاف الحجاج في طريق عودتهم إلى الشام، وقد قدرت تكاليف الجردة سبعمائة وخمسين كيساً (750)[2] .

وتسمى هذه القافلة في الشام بالحردة بينما تسمى في مصر باسم : تجريدة، ويذكر البديري أن سعد الدين باشا العظم عندما عُيِّنَ والياً لحلب، طلب من أهلها أن يجمعوا له (200) كيس لنفقات الجردة .

أما حماية قافلة الجردة وحراستها فلا تختلف عن قافلة الحج الأساسية لحمايتها من اعتداء البدو المسيطرين على طريق الحج[3] وقد جرت العادة أن تصل الجردة إلى دمشق قادمةً من الجهة التي جُهِّزَتْ فيها كحلب أو طرابلس أو صيدا أو أية جهة أخرى قادمة منها، ويكون ذلك في شهر ذي القعدة، أي بعد شهر من خروج قافلة الحج ومحملها متجهة نحو الحجاز، وبعد وصول قافلة الجردة إلى مركزها في دمشق، تمكث بعض الوقت فيها، ثم تتحرك في الفترة بين العاشر والخامس عشر من ذي الحجة من دمشق بقيادة سردارها، وتسير في نفس الطريق الذي سار فيه ركب الحجيج أثناء مسيرهم من مركزها إلى الحجاز، ثم تتوقف قافلة الجردة عند منزل يسمى : هدية، قريب من المدينة المنورة، وتسود حالة من الفرح الغامر بوصولها إلى هذا المكان إذ يلتقي ركب الجردة بركب قافلة الحجاج ويرافقونهم في طريق رجوعهم إلى الشام، وتظهر أهمية قافلة الجردة بما تقوم به من إغاثة وإكرام للحجاج، وإطعام جائعهم وسقي عطشاهم وكسوة عَرْيانهم، ويذكر البديري أن والي الجردة عثمان بن باشا الصادق والي طرابلس قد فعل هذا في حجّ سنة 1173 هـ / 1759 م، فقدَّرت مؤسسة الخلافة العثمانية صنيعه هذا، فعينته والياً على الشام، وعينت ابنه على طرابلس، ويمكن اعتبار قافلة الجردة بمثابة ترفيهٍ عن الحجاج وإعانةٍ لهم على العودة إلى ديارهم وهم بأحسن حال وراحة[4] .

ثالثاً : طريق سير قافلة الحج الشامي :

تمر قافلة أو محمل الحج الشامي بمحطات ومنازل عدّة من بدء انطلاقها من مركزها في دمشق، وحتى بلوغها منتهاها عند الحرمين الشريفين وقد ذكر المؤرخون الذين تحدثوا عن قافلة الحج الشامي في الفترة التي بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر، أن هناك طريقان في المنطقة التي تلي محطة المزيريب في حوارن، وهي منطقة شرق الأردن، وهذان الطريقان هما :

---

1 البديري، المرجع السابق، ص 11، ص 52 .

2 العبد، حسن آغا، التاريخ، حوادث بلاد الشام والامبراطورية العثمانية 1186 – 1241 هـ / 1771 – 1826 م، تحقيق : يوسف جميل نعيسة، دار دمشق، ط 1، 1986 م .

3 الراميني، أكرم، نابلس في القرن التاسع عشر، دراسة في سجلات المحاكم الشرعية بنابلس، نشر: الجامعة الأردنية، عمان، د.ت، ص 125 .

4 البديري، المرجع نفسه، ص 231 .

1– الطريق الروماني القديم المعروف بـ : طريق تراجان، نسبة للامبراطور الروماني الذي أسس هذا الطريق في عهده[1] ، ويعرف هذا الطريق أيضاً بالطريق السلطاني، ويبدأ هذا الطريق من بصرى الشام (اللجاه) ثم يسير شرقاً فيدخل الأراضي الروسية ويسير حتى مدينة المفرق ثم الزرقاء ثم عمّان، ثم حسَبان، مأدبا، ذيبان ويعبر وادي الموجب إلى الرَّبَّة فالكرك، ثم وادي الحسا، الشوبك، أذرح، الحُمَيْمَة أو منطقة الشراة، ثم العقبة (أيلة) على ساحل البحر الأحمر .

2– طريق الحج الشامي الشريف : ويبدأ من دمشق ثم يمر بـ : المزيريب، الرمثا، المفرق ، الزرقاء، الجيزة (زيزياء)، القطرانة، الحسا، عنيزة، معان، العقبة الحجازية، وهي غير مدينة العقبة الأردنية، المدَوَّرَة، ثم تتابع هذه الطريق سيرها بعد المدورة حتى المدينة المنورة، كما ذكر طريق الحج الشامي عدد من المؤرخين في العهد العثماني، وقد وردت محطاته بعد دمشق، وكانت الكسوة أولى منازله بعد دمشق، ثم خان ذي النون (دنون)، الصنمين، الحسا، عنيزة، معان، ذات حج تبوك، الأخضير، الاقيرع، المبْرَك، مدائن صالح، العلا مطران، شعب النعام (النعم) هَدِيَّة، وادي القرع[2] .

المبحث الرابع : التأثيرات العثمانية على محمل الحج وطريقيه المصريّ والشاميّ :

تتقارب وتتشابه إجراءات الاستعداد والتهيئة لقافلة الحج الشامي والمصري، وكذلك إجراءات تسييرهما وحمايتهما على الطريق من مركز انطلاقهما وحتى وصولهما إلى مكة والمدينة، ويمكن القول إن التأثيرات العثمانية شبه واحدة بين طريقي الحج الشامي والمصري، لأن الدولة العثمانية كانت تظلل الشام ومصر بسيادتها وسلطانها طول أربعة قرون تقريباً، لكن مصر خرجت عن السيادة العثمانية قبل الشام بحوالي خمسة وثلاثين عاماً، حين احتلت بريطانيا مصر عام 1882 م، بينما انتهت السيادة العثمانية عن بلاد الشام بأكملها مع نهاية الحرب العالمية الأولى عام 1918 م[3] .

وبالنظر إلى الأبعاد التي تتوخاها الدولة العثمانية من تسيير محملي الحج الشامي والمصري ومن رعاية قافلتيهما، فإنه يمكن ملاحظة الأمور الآتية :

أولاً : بروز دور الدولة العثمانية السياسي والديني في نظام الحج :

أبدت الدولة العثمانية حرصاً بالغاً واهتماماً كبيراً بالمظاهر الإسلامية، وخاصة عنايتها بإقامة الشعائر والفرائض، وما تمثله من رمزية دينية وسياسية على أنها امتداد لمؤسسة الخلافة، وصاحبة الولاية على العالم الإسلامي السُّني، وذات الأحقية في بسط سيادتها على هذا العالم[4] ، كي تتمكن من حمايته والذود عنه، وهذا ما أكده السلطان سليم الأول حين فتح بلاد الشام ومصر حين قال: " أنا خليفة الله في أرضه "[5] ، ثم دانت له الحجاز سِلماً وطوعاً، وأتاه والي الحجاز وشريفها محمد بن بركات أبو غي وسلَّمه مفاتيح الحرمين[6] ، وهو إقرار ضمني وعملي له بالسيادة على بلاد

---

1 بحيري، صلاح الدين، جغرافية الأردن، نشر الجامعة الأردنية، ط 1، عَمَّان، 1991 من ص 33 .

2 كبريت، رحلة الشتاء والصيف، ص 230 – 238 .

درادكة، طريق الحج الشامي في العصور الإسلامية، ص 82 – 91 .

بني يونس، قافلة الحج الشامي في شرق الأردن في العهد العثماني، ص 76 – 90 .

3 سعيد، أمين، أسرار الثورة العربية ومأساة الشريف الحسين بن علي، دار الكاتب العربي، بيروت، د.ت، ص 270 .

4 الطبّاخ، محمد راغب (ت 1370 هـ / 1951 م) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء (7 ج) نشر: المطبعة العلمية، ط 1، حلب، 1923 م، جـ 3، ص 121 – 122 .

5 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ 5، ص 125 .

6 النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد (ت 990 هـ / 1582 م) البرق اليماني في الفتح العثماني، أشرف على طباعه : حَمَد الجاسر، نشر : دار اليمامة، الرياض، د.ت، ص 24 – 25 .

ابن أبي السرور، محمد بكر الصديقي (ت بعد 1017 هـ / 1661 م) المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، تحقيق ليلى الصباغ، دار البشائر، ط 1، دمشق، 1995 م، ص 8 – 14 .

الحجاز وبتبعية هذه البلاد سياسياً ودينياً للخلافة العثمانية، ولأجل هذا يمكن إدراك إيلاء العثمانيين قافلة الحج كل الرعاية والعناية، وتكثيفهم الجهود لجعل قافلة الحج خير سفير لهم لإيصال هذه الرسالة إلى عموم المسلمين في مؤتمر الحج السياسي والديني، وإلى أهل الشام ومصر بشكل خاص، من خلال المحمل الشامي والمصري لأن هاتين القافلتين تضمان مسلمي آسيا وأفريقيا، وهاتان المنطقتان الجغرافيتان تحويان الخزان البشري الإسلامي في العالم آنذاك، وإليهما تتوجه أنظار العثمانيين بالحماية ووالعناية، ومن أبرز مظاهر هذا الاهتمام تركيز الجهود لإنجاح موسم الحج، وتهيئة قوافله، وخدمة ضيوف بيت الله مؤدي هذه الفريضة العظيمة استشعاراً لأهميتها في الإسلام، وحفاظاً على هيبتها وعظمتها في قلوب عموم المسلمين وقد أقرّ السلطان سليم الأول أثناء متابعته لإيرادات ونفقات ولاية مصر بعد فتحه لها، أقرّ المبلغ الذي كان يعرف باسم : " صُرَّة الحرمين "، والذي كان يرسل من بيت مال المسلمين إلى فقراء الحرمين، وفي العام التالي لفتح مصر أمر بإعداد كسوة فاخرة للكعبة، مزركشة ومهيبة، وكَتَبَ اسمه عليها، ثم أرسلت للكعبة المشرفة، وقد أرسلت الكسوة للكعبة عن طريق البحر، نظراً لاضطراب الطريق البري آنذاك بسبب أحداث الفتح[1] واستمراراً لهذا النهج العثماني في رعاية الحرمين الشريفين، رصد الخلفاء العثمانيون فيما بعد الأوقاف اللازمة للإنفاق على شؤون الحج، وعلى فقراء ومجاوري الحرمين، وإنشاء المباني والمآثر التي تخدم الحجاج لبيت الله الحرام على طول الطريق من القاهرة حتى مكة المكرمة، ويبدو من خلال النظر في مخصصات الحرمين من مصاريف قافلة الحاج وصرة الحرمين بنوعيها، ونفقات أمير الحاج، أن الخلفاء العثمانيين صادقون ومخلصون وجادُّون في رعاية الحرمين، وفي العناية بوفود الحجيج وقوافلهم، وفي الحرص على ديمومة إعداد قوافل الحجيج وإرسالها لأداء هذه الفريضة من كافة البلاد الإسلامية، لا سيما من مصر والشام، باعتبار هاتين الجهتين أبرز طرق الحج، أما الكسوة السنوية التي تنطلق من مصر نحو الكعبة والمنبر فتشمل: كسوة الكعبة وستارة باب التوبة، وبيارق الكعبة والمنبر، وقد خُصِّصَ موظفٌ خاص في مصر ليشرف على إعداد الكسوة عرف بـ : ناظر الكسوة الشريفة، ثم يجري كل الأعمال اللازمة لتجهيز الكسوة، كما يبدأ العمل في إعداد الكسوة كل عام من بداية شهر ربيع الآخر إلى آخر رمضان، وبعد انتهائها تؤخذ إلى مشهد الحسين لتحفظ هناك إلى خروج المحمل نحو الديار المقدسة[2] . ولذلك يلاحظ اختبار السلطات العثمانية لخيرة الولاة وأكثرهم كفاءة وحزماً وخبرة ودراية بالإدارة وتنظيم الأمور، كي يكونوا ولاة على ولاية دمشق على وجهٍ أكثر خصوصية، لأنها تنطلق منها قافلة ومحمل الحج الشامي[3] ، ولأن ذلك يكسبهم ثقة المجتمع الإسلامي بهم وولاءَهُ لهم، ويرسخ قناعة المسلمين بدولتهم بأنها حامية الحرمين الشريفين وراعية شؤونهم[4] ، كما أن دعم مؤسسة الخلافة في استانبول لسلطة الولاة، خاصة والي دمشق، يؤكد على تعزيز مركزية الدولة في اتخاذ القرار[5] .

ثانياً : اعتماد سياسة التوازن بين القبائل البدوية لضمان سلامة قوافل الحج :

عملت الدولة العثمانية بسياسة إرضاء القبائل البدوية التي تقيم في مناطق طريق الحج، خاصة في منطقة البادية الشامية[6] ، فهي من ناحية كانت تمنحهم الصَّر، أي تمنحهم النقود، لإسكاتهم وإبعادهم عن مهاجمة قوافل الحج ونهبها، ومن لم يأخذ حصته من القبائل يهاجم قوافل الحج لينهبها، وفي هذه الحالة فإن الدولة تلجأ إلى محاربة هؤلاء البدو

1 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ 5، ص 218 .

2 الرشيدي، حسن الصفا والابتهاج، ص 18 – 19، 31 .

3 نعيسة، مجتمع مدينة دمشق، جـ 2، ص 670 .

4 فهد، تاريخ أمراء الحج، مرجع سابق، ص 204 .

5 بني يوسف، قافلة الحج الشامي في شرق الأردن في العهد العثماني، ص 47 .

6 ابن كنان، المواكب الإسلامية، ص 57 .

والأعراب لتأديبهم، فهي تلجأ إلى استخدام القوة معهم عندما تفشل في كسب وُدِّهم واستعطافهم واحتوائهم، لأنها حينذاك تلجأ مضطرة لاستخدام أسلوب الشِّدَّة، وإذا شعرت الدولة أنها لا قِبَلَ لها بمحاربتهم لسبب أو لآخر، فإنها ترجع مرة ثانية إلى مُهادنتهم ومُصالحتهم[1] ، وتقسم سياسة التوازن هذه إلى قسمين هما :

1 – سياسة استخدام القوة :

أدركت الدولة العثمانية بعد تجارب مريرة مع القبائل البدوية في جنوب بلاد الشام، تجارب تميزت بالنجاح حيناً والخيبة والفشل أحياناً أخرى، أدركت أنها لن تستطيع احتواء البدو والأعراب بشكل تام، وأنها لن تتمكن من السيطرة على كافة قبائلهم ومنعهم نهائياً من مهاجمة ركب الحجاج والاعتداء على قوافلهم ونهبها، والفتك بالحجاج الآمنين، وذلك بسبب الخصومات بين تلك القبائل، والاختلاف في نزعاتهم ومشاربهم، والتعارض بين مصالحهم، مما يدخلهم في صراع واحتراب دائم، وقد تجلى هذا النزاع بصورة واضحة بين أكثر قبيلتين في منطقة جنوب بلاد الشام، وفي باديتها الجنوبية، وهاتان القبيلتان هما : قبيلة العدوان، وقبيلة بني صخر[2] .

وقد عملت الدولة العثمانية من خلال ولاتها ومتصرفيها في بلاد الشام على مراقبة تحركات رجال القبائل وعلى إرسال قواتها بانتظام إلى منطقة جنوب بلاد الشام، من أجل ردع وزجر أي قوة قبلية تحاول مهاجمة قوافل الحجيج، إذ أن علاقة القبائل البدوية بالسلطات العثمانية وولاتها، علاقة مصلحة متبادلة، فهؤلاء البدو الأعراب يأخذون الصَّر أو الصُّرة المالية المخصصة لهم من قبل سلطة الخلافة، مقابل حماية قوافل الحجاج في مناطقهم، دون أية ارتباطات بكيان الدولة أو نظمها الإدارية التي تربط الحاكم بالمحكوم اجتماعياً واقتصادياً[3] ، ويندرج هذا الأمر على قوافل الحج الشامي والمصري على حد سواء، فمثلاً حين افتتحت قناة السويس عام 1869 م، اعتبر البدو هذا الافتتاح ضربة اقتصادية قوية لهم، وذلك لتوقف مسير قوافل الحجاج القادمين من مصر وأفريقيا، حجاج المحمل المصري، توقفهم عن سلوك الطريق الصحراوية عبر سيناء إلى العقبة، أي عبر جنوب بلاد الشام في منطقة البادية الأردنية، وتحوّل سَفَرِ هؤلاء ليكون عبر السفن، في ذهابهم من مصر إلى الحجاز وفي عودتهم، وكذلك طريق الحج الشامي، من دمشق إلى المدينة المنورة، الذي تسلكه قوافل محمل الحج الشامي، بما فيهم قوافل الحجاج الأتراك، فقد أدى ذهاب حجاج مصر عبر البواخر والسفن إلى ميناء جدة ونويبع على البحر الأحمر، ومنها إلى مكة والمدينة، أدى إلى انقطاع مواردهم ومخصصاتهم المالية، خاصة قبيلة الحويطات التي تستوطن منطقة معان حتى العقبة في جنوب بلاد الشام، إذ كان هؤلاء يتولون حماية الحاج المصري عندما يفدون للانضمام لقافلة الحج الشامي، وقد هددوا الدولة العثمانية سنة 1898 م، بالانضمام إلى مصر إن لم تدفع لهم أعطيتهم ومنحتهم المالية، فعادت الدولة تدفع لهم مخصصاتهم، وتدفع أيضاً لقبائل بئر السبع في صحراء النقب كل مخصصاتهم تجنباً للتصادم معهم[4] .

2 – استخدام سياسة اللين وكسب وُدِّ القبائلِ البدويةِ :

كانت الدولة العثمانية تستخدم بالدرجة الأولى سياسة اللين والإحسان في التعامل مع القبائل البدوية المستوطنة على جانبي طريق الحج في جنوب بلاد الشام، وتسعى من خلال ذلك لكسب أبناء هذه القبائل عن طريق زعمائهم

1 ابن كنان، المواكب الإسلامية، ص 57 .

2 بني يونس، قافلة الحج الشامي في شرق الأردن في العهد العثماني، ص 108 .

3 الحمود، نوفان رجا، عَمَّان وجوارها خلال الفترة 1281 – 1340 هـ / 1864 – 1921 م، نشر: بنك الأعمال، ط 1، عَمَّان، 1996 م، ص 124 .

4 بني يوسف، قافلة الحج الشامي في شرق الأردن في العهد العثماني، ص 110 .

وقادتهم، لتؤدي دورها في حماية قوافل الحجاج في مناطقها، وتوفر لهذه القوافل الأمن والأمان، ولكي يعبر محمل الحج الشامي من مناطق تلك القبائل بسلام، دون التعرض لها بأي سوء، فإن لم تنفع هذه السياسة ولم تفلح في تحقيق غايات الدولة في حماية الحجاج وضمان سلامتهم وأمنهم، عندئذ تلجأ إلى استعمال العنف والقوة لتمنع البدو من التعرض لقوافل الحجاج، وقد نهج الخلفاء العثمانيون هذا النهج منذ بدء سيادتهم على بلاد الشام ومصر، على يدي الخليفة سليم الأول مطلع القرن السادس عشر الميلادي، ثم حذا حذوه ابنه السلطان سليمان القانوني، الذي كان يَسْتَهِلُّ خطاباته ومكاتباته لزعماء العرب وشيوخ قبائلهم بالآية القرآنية : { إنه من سليمان، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم } سورة النحل – الآية (30) .

والتزاماً من القيادة العثمانية بهذا المبدأ، فقد دفعت لأمراء البدو مبالغ مالية تصل أحياناً لحوالي عشرين ألف آقجة عثمانية[1] ، مقابل حماية قوافل الحجاج في مناطقهم، فإن لم يفوا بالتزامهم، فإن عليهم استرجاع كافة الأشياء التي ينهبها البدو من قوافل الحج، وقد تعددت طرق استمالة القبائل البدوية، من ذلك :

1 – توزيع منح نقدية سنوية على زعماء القبائل البدوية لضمان ولائهم، كما هو حال الشيخ كليب قبلان صالح الحويطات، الذي دفعت له الدولة العثمانية (108) قروش ونصف أرْدِبْ شعير، من موكب الحج الشامي في كل سنة .

2 – إعطاء شيوخ وقادة القبائل البدوية مبالغ مالية مقابل إشراك جِمالهم في نقل أحمال مؤن الحجاج وتجارتهم ونقل ذخائر العسكر إلى منازل (محطات الحجاج على طريق الحج)، ومن أمثلة ذلك : منح أمين الحاج المسمى إبراهيم في شعبان سنة 219 هـ / 1804 م، وكان حينها والياً على الشام وطرابلس وصيدا، ويشغل أيضاً منصب السر عسكر في هذه المنطقة، منح مشايخ الشام شيوخ البدو في باديتها الواقعة على طريق الحج منحهم مبلغ (32,000) قرش، تسلم إلى الشيخ عواد الفايز ابن الشيخ دياب شيخ مشايخ بني صخر، مقابل أن ينقل على جماله 1000 حمل شعير إلى قلعة معان، كما شاركت قبائل بني صخر بقيادة شيخهم فندي الفايز في سنة 1288 هـ / 1871 م في حماية ركب الحج من حوران حتى الكرك، وقدم أيضاً (700) جَمَل لخدمة قافلة الحج في ذلك الموسم[2] .

وهكذا تركت هذه السياسة بصماتها الواضحة على المجتمع الإسلامي العثماني وعلى الإدارة العثمانية في منهجها لإدارة الحج، سياسة الترغيب والترهيب والمداراة، وإن سياسة التوازن نجحت في التخفيف كثيراً من أضرار هجمات البدو على قوافل الحج، لكنها لم تعمل على إيقافها بالكامل، بسبب عوامل عدة، ليس المجال هنا للتوسع في مناقشتها، لكن من أبرزها كما ذكرنا، عدم وفاء ولاة الحج المعَيَّنين من مؤسسة الخلافة بالتزامهم تجاه البدو في دفع مستحقاتهم المالية المقررة لهم من دار الخلافة، لأن هؤلاء الولاة كانوا يختلسون منها دائماً، على تفاوتٍ في نسبة الاختلاس بين الحين والآخر، وأيضاً فإن غياب والي دمشق عن مركز الولاية لمدة ثلاثة أشهر لقيادة قوافل الحج إلى الحجاز، وكذلك استئجار أمير الحج لقوات المرتزقة في الفترات الأخيرة من عمر الدولة العثمانية، خلال فترة ضعفها، ثم تجميعه لهؤلاء المرتزقة في دمشق لحماية القافلة، ثم رفض تلك القوات مغادرة المدينة بعد انتهاء مهمتها، أدى ذلك كله إلى اضطراب الأمن في المدينة، وإلى تردي الجانب الأخلاقي، بسبب تفشي الرذيلة في المجتمع، الأمر الذي ارتَدَّ على الحياة الاقتصادية للناس، وأدى إلى ركودٍ في مجالاتٍ كثيرةٍ من أعمالهم، مما وسم هذه الفترة بسمات وتأثيرات سلبية، انعكست على علاقة المجتمع بالدولة، وهزّت الثقة بالدولة،

1 الآقجة : أصغر وحدة نقدية عثمانية مصنوعة من الفضة . انظر : الحمود، عَمَّان وجوارها، ص 247 .

2 الحُمُود، عَمَّان وجوارها، ص 133 .

وأدت إلى اتهام إدارتها بالفساد، وتوليد قناعة لدى الناس بعجزها عن ضبط الأمور، والتقصير في تحقيق مصالح الناس وحمايتهم[1].

ثالثاً : استحداث الصَّرِّ أو الصُّرَّة السلطانية " الهمايونية " :

من التأثيرات العثمانية البارزة والمآثر الحميدة التي استحدثها العثمانيون منذ بداية فتحهم للبلاد العربية، ما عُرِف بـ : الصَّر أو الصُّرَّة، كما اشتهرت بـ : الخزنة السلطانية، ويعد نظام الصَّر أو الصُّرة من الإصلاحات الهامة على طريق الحج، ومما دعا إلى استحداث هذا النظام تزايد اعتداءات البدو والأعراب على قوافل حجاج بيت الله الحرام المتجهة إلى الحجاز، سواء عن طريق مصر أو عن طريق الشام، خاصة في نهاية العهد المملوكي الذي سبق قيام الدولة العثمانية، واستمرت هجمات البدو على الحجيج منذ بداية العهد العثماني حتى مطلع القرن السادس عشر، حيث فتح السلطان سليم الأول في مطلعه بلاد الشام عام 1516 م / 922 هـ، وفي العام الذي يليه فتح مصر 1517 م / 923 هـ، وقد قلل إنشاء المماليك لشبكة من القلاع والحصون على طول طريق الحج من دمشق إلى المدينة المنورة، من هجمات الأعراب على قوافل الحج، لكن لم يقض عليها نهائياً، فجاء استحداث السلطان سليم الأول لنظام الصَّر[2] ، كخطوة إضافية أسهمت إلى حد كبير في التقليل من اعتداءات الأعراب على قوافل الحجيج في ذهابهم لأداء فريضة الحج وعودتهم منها، من خلال طرق الحج الشامية والمصرية وغيرهما من الطرق، ولكنها لم توقف تلك الهجمات نهائياً.

ولابد من الإشارة هنا إلى هذا الهدف والبعد الاستراتيجي الذي ترنو الدولة العثمانية لتحقيقه من خلال هذا الفهم للواقع، والقدرة على تحقيقه، والكفاءة العالية في التعامل معه بواقعية، بحيث تقوم بهذه الإجراءات الاحترازية وبهذا التكيف مع حالة المنطقة، بما يلبي كافة متطلباتها، فجاءت هذه الخطوة كخطوة مكملة لما سبق من الجهد الطيب المبارك الذي قام به السلاطين المماليك، لحماية طرق الحج، ورعاية الحجاج وإكرامهم، وذلك باستفادة الخلفاء العثمانيون من التجربة المملوكية والبناء عليها والتحسين من إجراءاتها، ولذلك ارتقت خطتهم نحو الأكمل في هذا العمل المبرمج الذي تضعه الدولة العثمانية في حساباتها الاستراتيجية بعيدة المدى، ضمن منظومة اهتمامها بالوضع العام للدولة، والخاص لهذه المنطقة بمراعاة خصوصيتها على المستوى الداخلي، لحفظ أمنها وستقرارها في كافة ولايتها، وكذلك على المستوى الخارجي كي تقطع الطريق على أعدائها على المستوى الاقليمي والدولي، من أي يستغلوا أي خلل أمني داخلي، فيوظفوه ليعززوا من أوراق الضغط على الدولة العثمانية ويزعزعوا استقرارها، ويستثمروا ذلك على المدى البعيد من أجل تهديمها والقضاء عليها.

وبالعودة إلى معنى الصُّرَّة أو الصِّرّ :

فالصَّرُّ: يعني دفع مبالغ مالية سنوية لزعماء القبائل البدوية ووجهائها، ومن ثَمَّ لكافة أفرادها عن طريق هؤلاء الزعماء، لاسترضائهم، وهذه القبائل تنتشر على امتداد طريق الحج من دمشق وحتى المدينة المنورة، يدفع الصَّرُّ لهؤلاء لأجل ضمان سلامة الحجاج[3] .

فهي إذاً منحةٌ مخصصة من الخليفة العثماني لأمراء البدو ولأفراد قبائلهم إتقاءً لأذاهم، ودرءاً لعدوانهم وهجماتهم، فقد كان الخليفة شديد الحرص على توسيع هذه المنحة وزيادتها، لتشمل أموال الصَّر هدايا أخرى من مجوهرات وملابس

1 رافق، قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 9 – 10 .

2 الحسيني الدمشقي، محمد عارف أحمد المنير، كتاب السعادة النامية الأبدية في السكة الحجازية الحديدية، طبع جامعة واين، ديترويت، 1971 م، ص 254 وما بعدها .

3 رافق، عبد الكريم، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابارت (1516 – 1798 م) ط 2، دمشق، 1968 م، ص 156 .

لبنات شيوخ وأمراء البدو، وزيادة على هذا كان الخليفة يرسل صرة إلى بنت شيخ القبيلة في حال وفاة الشيخ، كإكرام لها من الخليفة ومواساةٍ لها وتخفيفٍ عنها، وكانت تسمى تلك الصُّرة حينذاك : بـ صُرَّة البِنْت[1] .

أما الصُّرة : فهي المبالغ المالية التي يرسلها الخليفة العثماني كل سنة مع أمير الحج، محمولة على محمل الحج، إلى والي الحجاز من الأشراف الهاشميين كمنحة لهم، وأيضاً يكون معها الأموال التي يرسلها الخليفة والسلطان العثماني إلى والي الحجاز لينفقها على العلماء والمجاورين للحرمين والفقراء في مكة والمدينة .

ويسمى الشخص الذي يعينه الخليفة لحمل الصرة إلى أشراف الحج : " الصرة أميني " أو " أمين الصُّرة " [2]

أما الصَّر، الذي هو حق أمراء البدو وقادتهم، وأعطيات أتباعهم ورعاياهم، فيتسبب التلاعب بها، أو إنقاصها وعدم منحها لمستحقيها من الخليفة العثماني، في نقمة هؤلاء البدو على الخلافة وعلى السلطة العثمانية وعلى الوالي الذي يمثلها، فيدفعهم إنقاص أعطياتهم من الوالي للانتقام من الدولة ووليها أمير الحج، ويكون الانتقام بالهجوم على قوافل الحجيج ونهبهم وأخذ كل ما لديهم، وقتلهم والتنكيل بهم[3] ، وبالتالي تعكير صفو موسم الحج[4] ، وفي كثير من الأحيان يكون الانتقام في طريق عودة الحجيج بعد أدائهم المناسك، أما سبب تأجيلهم الهجوم على الحجيج بعد عودتهم من أداء فريضة الحَجِّ، وليس في طريق ذهابهم لأداء المناسك، وذلك كي لا ينسب لهؤلاء العربان أنهم كانوا السبب في منع المسلمين من أداء فريضة الحَجِّ !! وهذا أمر يبدو عجيباً إلى حَدٍ كبيرٍ، أن يكونوا لصوصاً وذوي مبادئ[5] ؟!!! .

وفي هذا السياق لابد من الإشارة إلى أن العلة الأساس والسبب الرئيس في نكبة الحجاج ونهبهم من قبل أمراء البدو، يرجعان إلى الأخطاء القاتلة التي يرتكبها الولاة العثمانيون، الذين عادة ما يكلفون من قبل السلطات العثمانية بإمارة موسم الحج وقيادة قافلته، وهنا نجد، ومن خلال المقارنة، تشابه الحال بين قافلة الحج المصري وقافلة الحج الشامي، ففي قافلة الحج المصري يلاحظ أن طمع أمير الحجِّ في المخصصات المقررة من الدولة العثمانية لأمراء العربان وشيوخ البدو، يتسبب في ضررين بالغين وكبيرين للحجاج .

الأمر الأول : تقصيره في حقِّ الحِجَّاج أنفسهم، وذلك بحرمانهم من رغبتهم في زيارة المدينة المنورة، بعد أداء مناسك الحج، وقد حدث هذا كثيراً في أواخر القرن الثامن عشر، وذلك لسبب جوهري هو أنَّ هؤلاء الأمراء يُقَصِّرون في دفع النفقات المطلوبة لقافلة الحج، وإن ادّعوا عكس ذلك، وَدَوَّنوا في السجلات الرسمية عكس ذلك، بأن دفعوا تلك النفقات بالكامل، ولكنهم لم يفعلوا ، بل كانت سرقاتهم لمخصصات القافلة تدفعهم لتقليل الخدمات، وبالتالي لا يأخذون الحجاج إلى زيارة المدينة المنورة لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم .

والأمر الثاني : أن طمعه في مخصصات أمراء البدو المعروفة بـ : الصَّرِّ، كان يُعَرِّض قافلته لاعتداء قبائل البدو عليها وسرقتها، انتقاماً منها، لعدم دفع أمير الحج مخصصاتهم لهم وسرقته لها، ومن الأمثلة على الضرر الأول الذي يلحق بالحجاج، ما حدث في سنة 1199 – 2000 هـ / 1784 – 1785 م، أن الحجاج المصريين لم يزوروا المدينة المنورة، وأيضاً في العام الذي سبق هذا العام، لم يدفع أمير الحجِّ المصريِّ الصَّر للبدو على طريق الحج من مصر إلى

1 الحسيني الدمشقي، السعادة النامية الأبدية، ص 262 .

2 البديري، حوادث دمشق اليومية، ص 51 .

3 ابن كنان، المواكب الإسلامية، ص 39 .

4 بني يونس، قافلة الحج الشامي في شرق الأردن في العهد العثماني، ص 65 .

5 الرشيدي، حسن الصفا والابتهاج، ص 54 .

المدينة، على الرغم من أن أحمد باشا أمير الحج الشامي أكد عليه ذلك، بل وزاد عليه بأن أنعم عليه ببعض المال وبطعام الدواب وذخيرة السلاح، وردَّ الأميرُ المصريُّ بعللٍ وذرائعَ غيرَ مقبولةٍ، وادعى بأنَّ الصَّر لم تصله في العام السابق ولا في هذا العام، وأصَرَّ على موقفه بالرغم من إلحاح الشيخ سرور شريف مكة عليه، وكذلك إلحاح الحجاج بأن ياخذهم إلى المدينة المنورة والروضة الشريفة فيها، وقد سجل الجبرتي هذه الحادثة وقال عنه : " تَسَلّم ملاليم الحاج، وطلبوا منه حساب ذلك، وقالوا له : فضحتنا في مصر، وفي الحجاز، وفي الشام، وفي الروم وجميع الدنيا "[1] .

وأما في قافلة الحج الشامي فالشيء ذاته قد حدث، حين استولى أمراء الحج على الصَّر، ولم يعطوه لمستحقيه من أمراء البدو، مما تسبب في هجوم هؤلاء الأعراب على قوافل الحج في رحلة عودتها ونهبها وقتل الكثير من الحجاج، ويُذْكَر أن أمير الحج عساف باشا في سنة 1081 هـ / 1671 م، والذي كان يشغل آنذاك متسلم لواء عجلون، ارتكب أخطاءً أدت إلى مهاجمة البدو للحجيج، ومن أخطائه تلك عدم تسليمه الصَّر لأصحابه، وابتزازه أموالاً من بعض الحجاج الأعاجم[2] .

رابعاً : إضفاءُ طابَع التَّصوُّفِ على مَراسِم مَوَاكبِ الحجّ الشاميّ والمصريّ :

يغلب على العثمانيين التصوف في كافة سلوكياتهم الدينية والاجتماعية، ولا يستثنى من ذلك سوى فئات محدودة منهم، بل إن سِماتِ الكثير من السلاطين العثمانيين وكبار رجال الدولة هي سِماتٌ صوفية، وقد انتشرت بينهم الطرق الصوفية العديدة كالنقشبندية والشاذلية والرفاعية وغيرها، ولهذا فإن مواكب الحج التي كانت تنطلق من ولايات الدولة العثمانية، من خلال طرق الحج الأربعة المشهورة من الشام ومصر واليمن والعراق، بدا عليها جلياً التأثيرات الصوفية، وخاصةً فيما يخص المحملين الشامي والمصري، اللذين تُعْنى بهما هذه الدراسة، ويتم تناول هذه التأثيرات من جوانب ثلاثة :

1- الاحتفال بتنظيم قافلة الحج وتوديعها واستقبالها :

تعتبر مراسم الاحتفال بقافلة الحج الشامي والمصري من أطول وأوسع المراسم الاحتفالية الدينية والمدنية على حد سواء، نظراً لما يبديه الخلفاء العثمانيون ومؤسسة الخلافة الرسمية وأيضاً الولاة، من اهتمام بهذه الاحتفالية السنوية الموسمية، لأنهم يتخذون من هذه المراسم الاحتفالية سبيلاً لتعزيز مكانة الخلفاء والسلطة العثمانية بشكل عام في أعين رعاياها عامة المسلمين، وترسيخ احترامها في نفوسهم[3] ، إذ أن عدد المشاركين في احتفال توديع الحجاج يفوق كثيراً الاحتفالات في المواسم الأخرى التي تقام في مدينة دمشق مركز انطلاق قافلة الحج الشامي، أو في القاهرة عند مقام الإمام الحسين، ومن أبرز ملامح هذه الاحتفالية ذات التأثير الصوفي العثماني الواضح، الاحتفال بموكب الزيت والشموع التي سترسل من دمشق إلى الحرم النبوي الشريف مع القافلة، حيث يؤتى بِجِمَالٍ مزينة تحمل الزيت والشموع ويتقدمها جَمَل يحمل بيرق أو علم أخضر بشرابيب حمراء يكتب عليها عبارات دينية، وهذا الموكب يسبق القافلة والمحمل في الإعداد والتجهيز في دمشق[4] . وبالإضافة إلى ما سبق تجري الاحتفالات الأخرى المرافقة لخروج محمل الحج، وكذلك تزدان مراكز الولايات كمركز ولاية دمشق وولايات مصر في الاحتفالات التي تقام بمناسبة تنصيب خليفة عثماني جديد في استانبول، ليكون لمؤسسة الخلافة العثمانية الصفة

1 الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن (ت 1241 هـ / 1825 م) عجائب الآثار في التراجم والأخبار (3 ج) مطبعة بولاق، 1976 م، جـ 2، ص 101 .

2 ابن كنان، المواكب الإسلامية، ص 39 .

3 المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، مج 4، جـ 2، ص 161 .

4 نعيسة، مجتمع مدينة دمشق، جـ 2، ص 665 – 668 .

الدينية[1] ، ولتقوي وترسخ ولاء المسلمين وانقيادهم للخليفة إمام المسلمين .

2- إنشاء الخلفاء العثمانيين التكايا الصوفية ووقف الأوقاف لها :

مما يشير إلى تلك التأثيرات الصوفية على محمل الحج العثماني، إنشاء السلطان مراد الثالث (982 – 1003 هـ / 1574 – 1595 م) تكية ورباطاً في المدينة المنورة، وعين لهما موظفين يقومون بواجب الرعاية لها والقيام بخدمة من يرتادونها، كما أمر بتقديم الطعام لمن يلجأ إلى تلك التكية من مجاورين وفقراء، وأوقف على ذلك نحو تسع عشرة قرية من قرى مصر، وأيضاً أوقف السلطان أحمد الأول بن السلطان محمد (1012 – 1026 هـ / 1603 – 1617 م) أوقافاً من أرض مصر، خصصها للإنفاق على أهل الحرمين، وعرف هذا الوقف باسم " وقف المحمدية "[2] .

3- مَحْمَلُ الحَجِّ الشاميِّ سبيلُ انتشارِ التَّصَوُّفِ وطُرُقِه في ولاية دمشق :

تعد مناسبة الحج وتجهيز ركب الحج الشامي، واستقبال حجاج المحمل الشامي، فرصة هامة لنشر التصوف والطرق الصوفية في الولايات العثمانية عامة، وفي ولاية دمشق بشكل خاص، كما أنها سانحة لتبادل الآراء بين العلماء الأغراب الذين يفدون إلى ولاية دمشق للمشاركة في موكب الحج وأداء الفريضة، وبين العلماء المحليين أبناء الشام، وخاصة أبناء مدينة دمشق، ويذكر أن الطريقة النقشبندية قد انتشرت في دمشق في أواخر القرن السابع عشر الميلادي، على يد جَدِّ الأسرة المرادية، السيد مراد المرادي الذي أمَّ مدينة دمشق بمناسبة الحج، ثم عمل على نشر طريقته فيها، وتابع عمله من بعده ابنه السيد محمد، وأصل الأسرة المرادية من بخارى، وتنسب هذه الطريقة في الأصل إلى الشيخ أحمد الفاروقي الذي كان مقيماً في الهند، وكان يشتهر هناك بالمجَدِّدْ[3] ، ويبدو أنه لاقى قبولاً في دمشق بين الأهالي، وتحبب إليهم فانتشرت طريقته بينهم، ولو لم يكن المناخ الاجتماعي مُهَيَّئاً في دمشق لتقبل وانتشار هذه الطريقة وغيرها لما شاعت وانتشرت بين الناس، ولما اتسع المجتمع الدمشقي في حينها لاستقبال واحتضان العديد من الهنود رجال الطريقة النقشبدنية، ولَمَا انتسب الناس إلى هذه الطريقة وإلى غيرها من الطرق الصوفية الأخرى التي انتشرت في بلاد الشام في العهد العثماني[4] . وقد أعان على انتشار هذه الطرق في المجتمع الدمشقي والمجتمع الشامي الأوسع، انتساب العلماء إليها وانخراطهم في تكوينها ونسيجها البنيوي الروحي والتربوي، بل إن هذا الانتساب قد رفع من مستوى هذه الطرق الصوفية، وأبعد عنها الغلو في الممارسات الصوفية، ورشدها وجعلها الأقرب إلى المنهج القرآني، وعزَّزَ أيضاً الروابط والصّلات بين المنتمين للطريقة الواحدة، وبين أبناء الطرق الصوفية عامةً، وأبعد عن تلك الطرق الحساسيات والفوارق، وجعل نسيجها الإسلامي متجانساً متآلفاً، لأنها ذات شعائر وأعرافاً اجتماعيةً متقاربةً[5]، وليس بينها أيةُ اختلافاتٍ عقادية .

الخاتـمـة

سعت هذه الورقة البحثية لاستجلاء التأثيرات العثمانية على طريقي الحج المصري والشامي، فيما عرف بمحمل الحج ، وذلك بالتعرف على تعريف كلمة المحمل وصلتها بقافلة الحج، وتبين أن قوافل الحج الرئيسة في العهد العثماني هي : قافلة الحج المصري وقافلة الحج الشامي، ثم أضيف إليهما قافلتان أخريان فيما بعد هما قافلة الحج العراقي وقافلة الحج

1 بني ياسين، قافلة الحج الشامي في شرقي الأردن في العهد العثماني، ص 55 .

2 الرشيدي، حسن الصفا والابتهاج، ص 18 – 19 .

3 المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، جـ 4، ص 114، 129 .

4 المرادي، المصدر السابق، جـ 2، ص 2، جـ 3، 260 .

5 رافق، قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 22 .

اليمني، تبعاً للطرق التي تسلكها تلك القوافل، أما طريق الحج الشامي، فيسلكه حجاج المحمل الشامي أو قافلة الحج الشامي، وتضم حجاج الشام وبلاد الروم " الأتراك " وكل الحجاج المشاركين من المشرق كحجاج أفغانستان والهند والبخارى وسمرقند والروس والقفقاسيون وغيرهم، ويتجمع جميع هؤلاء في مركز ولاية الشام، وهي مدينة دمشق، وأما الطريق الآخر فهو طريق الحج المصري، ويضم حجاج مصر ووادي النيل وشمال إفريقيا وكافة المناطق الإفريقية الأخرى، كما تتبعت هذه الورقة مسار تلك الطرق من مبتغاها وحتى منتهاها، وتطرقت إلى المخاطر التي تكتنف مسيرة الحجاج في طريقهم، وتجشمهم المصاعب واستعدادهم لتحمل المآسي والويلات في سبيل أداء هذه الفريضة، باعتبارها الركن الخامس من فرائض وأركان الإسلام، وقد حدث هذا فعلاً من خلال ما أثبتته الوثائق والمصادر، أن تعرض الحجاج وقوافلهم للنهب والسلب والقتل والتنكيل، دونما ذنب أو جريرة ارتكبوها، بل كان الطمع بالمغنم ونزوة حب المال والجشع وراء مآسي الحجاج في طريق حجهم، إذ غالباً ما تكون نكباتهم والاعتداء عليهم في طريق عودتهم، وقد تبين أن من أكثر الأسباب في ذلك تقصير ولاة الحج في دفع المخصَّصات المالية للبدو الأعراب التي تقررها مؤسسة الخلافة العثمانية لهم، فيما عرف بنظام الصَّر أو الصُّرَّة، إذ كانت تحرص هذه المؤسسة على تقديم أفضل الخدمات لحجاج بيت الله الحرام وللمعتمرين، من منطلقات إسلامية بحتة، تَمَيَّزَ الخلفاء العثمانيون من خلالها بتدينهم وحبهم للإسلام، وحرصهم الشديد على القيام بواجباتهم تجاه أبنائه وحماية ورعاية مقدساته وخاصة الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، وكانت مؤسسة الخلافة العثمانية تبذل كل الجهود لراحة الحجاج وأمنهم، وكانت مسألة الأمن لهم الأمر الأهم والأخطر والأكثر تعقيداً، إذ استخدمت أساليب الاحتواء المتعددة من قوة وترهيب وترغيب للبدو والأعراب، لكنها ظلت المشكلة الأصعب والعقبة الكأداء التي واجهت العثمانيين، ولم يجدوا لإنهائها سبيلاً إلى حين انتهاء دولتهم .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

- القرآن الكريم .

1- ابن إياس، محمد بن أحمد (ت 930 هـ / 1524 م) بدائع الزهور في وقائع الدهور، (5 ج) تحقيق: محمد مصطفى، د.ن، القاهرة، 1967 م .

2- البديري، أحمد البديري الحلاق، حوادث دمشق اليومية 1154 – 1175 هـ / 1741 – 1762 م تحقيق: أحمد عزت عبد الكريم، نشر: الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، د.ت .

3- الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن (ت 1241 هـ / 1825 م) عجائب الآثار في التراجم والأخبار (3 ج) مطبعة بولاق، 1976 م .

4- ابن جبير، محمد بن جبير الكناني (ت 1219 هـ / 1804 م) رحلة ابن جبير المسماة : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، دار التراث، بيروت، 1968 م .

5- الحسيني الدمشقي، محمد عارف أحمد المنير، كتاب السعادة النامية الأبدية في السكة الحجازية الحديدية، طبع جامعة واين، ديترويت، 1971 م .

6- الرشيدي، أحمد، حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج، تحقيق علي عبد اللطيف أحمد نشر : مكتبة الخانجي، مصر، 1980 م .

7- ابن أبي السرور، محمد بكر الصديقي (ت بعد 1017 هـ / 1661 م) المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، تحقيق ليلى الصباغ، دار البشائر، ط 1، دمشق، 1995 م .

8- السيوطي، عبد الرحمن بن محمد، (ت 911 هـ / 1505 م) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، المطبعة الشرقية، القاهرة، 1910 م .
9- العبد، حسن آغا، التاريخ، حوادث بلاد الشام والامبراطورية العثمانية 1186 – 1241 هـ 1771 – 1826 م، تحقيق : يوسف جميل نعيسة، دار دمشق، ط 1، 1986 م .
10- العبدري، محمد بن محمد الحيحي، المسماة الرحلة المغربية، تحقيق: محمد الفاسي، نشر: جامعة محمد الخامس، الرباط، 1968 م .
11- كبريت، محمد عبد الله الحسيني الموسوري (ت 1070 هـ / 1659 م) الرحلة (رحلة الشتاء والصيف)، تحقيق : محمد سعيد الطنطاوي، المكتب الإسلامي، ط 2، بيروت، 1965 م .
12- ابن كنان الصالحي، محمد بن عيسى (ت 1153 هـ / 1740 م)، المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، تحقيق: حكمت سليمان، جامعة دمشق 1982 م .
13- المرادي، محمد خليل بن علي (ت 1206 هـ / 1791 م) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (4 مج) مكتبة المثنى، بغداد، 1883 م .
14- النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد (ت 990 هـ / 1582 م) البرق اليماني في الفتح العثماني أشرف على طباعته : حَمَد الجاسر، نشر : دار اليمامة، الرياض، د.ت .

ثانياً : المراجع :

1- بحيري، صلاح الدين، جغرافية الأردن، نشر الجامعة الأردنية، ط 1، عَمَّان، 1991 .
2- بني يونس، مأمون أصلان، قافلة الحاج الشامي في شرق الأردن في العهد العثماني 1516 – 1918 م دار الكندي، ط 1، عَمَّان، 2000 م .
3- التهامي، محمد محمد، الإصلاحات المملوكية في الأرض الحجازية، مجلة الدارة، سنة 1985 م عدد حزيران 6/11 .
4- حَمَارْنَة، نضال، محمل الحج الشامي، صحيفة الرأي الأردنية، ع (15696) الأربعاء 18 ذو الحجة 1434 هـ / 23 – 10 – 2013 م .
5- الحمود، نوفان رجا، عَمَّان وجوارها خلال الفترة 1281 – 1340 هـ / 1864 – 1921 م نشر: بنك الأعمال، ط 1، عَمَّان، 1996 م .
6- درادكة، صالح موسى، طريق الحج الشامي في العصور الإسلامية، نشر: مؤسسة آل البيت، ط 2 عَمّان، الأردن، 2007 م .
7- رافق، عبد الكريم، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، نشر جامعة دمشق، دمشق، 1985 م .
8- رافق، عبد الكريم، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابارت (1516 – 1798 م) ط 2، دمشق، 1968 م .
9- رافق، عبد الكريم، قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني، مجلة دراسات تاريخية (فصلية تعنى بالدراسات التاريخية، تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب) كلية الآداب / جامعة دمشق، ع 6، ذو الحجة 1401 هـ / تشرين أول 1981 م .
10- الراميني، أكرم، نابلس في القرن التاسع عشر، دراسة في سجلات المحاكم الشرعية بنابلس نشر : الجامعة الأردنية، عمان، د.ت .
11- رفعت، إبراهيم، مرآة الحرمين، أو : الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، (2 ج)، دار الكتب المصرية، ط 1، 1925 م .

12- سعيد، أمين، أسرار الثورة العربية ومأساة الشريف الحسين بن علي، دار الكاتب العربي، بيروت د.ت .
13- الطّبّاخ، محمد راغب (ت 1370 هـ / 1951 م) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء (7 ج) نشر: المطبعة العلمية، ط 1، حلب، 1923 م .
14- العنقاوي، عبد الله، المحمل نشاته وآراء المؤرخين فيه، مجلة كلية الآداب، القاهرة، (مج 2)، سنة (2) 1391 – 1392 هـ / 1971 – 1972 م .
15- فهد، بدري محمد، تاريخ أمراء الحج، مجلة المورد، عدد خاص بمناسبة حلول القرن الخامس عشر الهجري، مج 9، ع 4، شتاء سنة 1980 م .
16- كرد علي، محمد، خطط الشام (6 ج) مكتبة النوري، ط 3، دمشق، 1983 م .
17- نعيسة، يوسف جميل، مجتمع مدينة دمشق، 1186 – 1256هـ / 1772 – 1840 م، (2 ج) دار طلاس، ط1، دمشق، 1986 م .

المراجع الأجنبية :

1- A.D. Peterson. Early Ottoman Forts on Hajj Road in Jordan. Thesis Pembroke College Oxford. Trinity Term 8986. P.6